قالت العرب
"وأنت تعد فطورك، فكر بغيرك... (لا تنس قوت الحمام)
وأنت تخوض حروبك، فكر بغيرك... (لا تنس من يطلبون السلام)
وأنت تسدد فاتورة الماء، فكر بغيرك...
(ثمة من يرضعون الغمام)

المشهد

العدد 339 - السنة الرابعة عشرة - الأحد 25 مايو 2025 م الموافق 27 ذو القعدة 1446 هـ

إنتاج اللا معنى فى الجامعات

اللا منتمون والعدمية الأكاديمية .. «دردشة مع الذات»

الأزمة التى أركز عليها بشعة، لأنها ثلاثية الأبعاد: بنيوية وإجرائية وسلوكية، تتلخص فى أن عدداً كبيراً من كليات العلوم الاجتماعية العربية لم يعد ينتج معنىً يرتقى إلى ما يفترضه العلم الاجتماعي، وباتت تنتج ما يسميه المصريون مزاحاً "بالهلاضيم" أو بتعبير التونسى الطاهر لبيب -الرئيس السابق للجمعية الدولية لعلم الاجتماع - "اللا معنى". معاهد ومؤسسات تحتضن طوابير من اللا منتمين الذين لا يلتزمون بأصول وضوابط ممارسة تلك العلوم.

ومشكلتا اللا معنى واللا انتماء مرتبطتان، ويشكلان معاً أزمة بنيوية وإجرائية وسلوكية عويصة تعصف بدور وبتطور العلوم الاجتماعية العربية. أزمة بنيوية؛ لأن نشأة عدد ليس قليل من كليات العلوم الاجتماعية فى البلدان العربية جاء إما مشوهاً، أو مبتسرًا، أو فوقياً، لم يراع قواعد البناء والنضج السليمة للمؤسسات.

وأزمة إجرائية لأن ما يجرى كل يوم فى تلك الكليات يكشف عن أنها تكبل نفسها بإجراءات ونظم تشغيل ولوائح إدارية تنحرف بها عن مقاصدها ليصبح الشكل فيها أهم من المضمون.

وأخيراً أزمة سلوكية لها مظاهر لا يمكن أن تخطئها العين، وهى ترى تصرفات منفرة يأتى بها بعض المشتغلين بالعلوم الاجتماعية، أقل ما يقال فى وصفها أنها مجافية للصواب إن لم تكن مخجلة ومعيبة.

ولا أزمات بدون مسببات. وأبرز مسببات تغييب المعنى مرتبط باللا منتمين، وهم جزء من المشتغلين فى أروقة مؤسسات العلوم الاجتماعية، راحوا يعمقون سقطات هذه العلوم، بدلاً من أن يقيلوها من عثراتها.

وقد عرّفتنى الخبرات الثلاث: النظرية الغارقة فى التجريد، والميدانية اللصيقة بالناس، والنخبوية القريبة من صنع القرار أن العلوم الاجتماعية العربية بشكل عام، وعلم السياسة الذى أنتمى إلى تقاليده بشكل خاص، بحاجة ماسة إلى وقفات شجاعة مع النفس والبداية بأن يسأل المشتغلون فى هذه العلوم أنفسهم سؤالاً صعباً لا مفر منه إن أريد لتلك المعاهد إصلاحاً: هل نحن حقاً ننتمى إلى تلك العلوم؟

جدول 3 : توزيع الجامعات المشاركة في تصنيف التايمز 2025 حسب أدائها في التصنيف

	افضل 200 جامعة	500-201	1000-501	1200-1001	1500-1201	1501+	غير مصنف	عدد الجامعات
السعودية	1	6	15	3	-	-	-	25
الإمارات	1	6	1	-	-	-	7	15
مصر	-	-	7	14	11	3	12	47
الأردن	-	-	5	4	3	-	8	20
لبنان	-	1	2	-	2	-	1	6
المغرب	-	1	-	-	3	8	4	16
الكويت	-	1	-	-	1	-	3	5
قطر	-	1	-	-	-	-	-	1
البحرين	-	-	1	-	-	-	2	3
سلطنة عمان	-	-	1	-	-	-	8	9
تونس	-	-	1	1	2	4	2	10
العراق	-	-	-	3	3	16	58	80
الجزائر	-	-	-	-	1	25	56	82
فلسطين	-	-	-	-	1	-	6	7
سوريا	-	-	-	-	-	1	2	3
ليبيا		-	-	-	-	-	8	8
الصومال	-	-	-	-	-	-	3	3
اليمن	-	-	-	-	-	-	2	2
السودان	-	-	-	-	-	-	1	1
جزر القمر	-	-	-	-	-	-	1	1
المجموع	2	16	33	25	27	57	184	344

كثير من الإنتاج الأكاديمي اليوم قائم على أطروحات بلا مضمون ومشروعات بلا هوية

العلوم الاجتماعية الراسخة ذات المعنى علوم ناطقة، جريئة وشجاعة لا مكان فيها للجبناء

بقلم: د. إبراهيم عرفات

(تنويه:- نشر هذا المقال كاملًا على موقع جريدة المشهد فى جزءين وهذه نسخة مختصرة منه)

اللا معنى

فالمشتغلون بالعلوم الاجتماعية فى المنطقة العربية وبعد أكثر من قرنين من أول تعرف على تقاليدها المستوردة، ما زالوا يعيشون حالة من الدهشة، انفصلت فيها الدوال عن الأحوال، وبتعبير مصرى دارج أصبحت «مبتجمعش.» تنتج عدمية فكرية أنستنا طبيعة وهوية ورسالة العلوم الاجتماعية. لكن ما هو أصلاً المعنى والرسالة والهوية التى يجب أن تركز عليه هذه العلوم؟

للإجابة، أعود إلى نص عميق لعبدالرحمن الكواكبى يلخص المعنى الأسمى للعلوم الاجتماعية، وهو مقاومة القهر، كل أشكال القهر. يقول الكواكبى فى صفحتى ٤٦ و٤٧ من كتابه الأيقونى «طبائع الاستبداد»:

«إن الاستبداد لا يخشى علوم اللغة، فتلك العلوم التى بعضها يقوّم اللسان أكثرها هزل وهذيان. وهو لا يخاف علوم اللغة إلا إذا كان وراء اللسان حكمة.. وكذلك لا يخاف الاستبداد من العلوم الدينية المتعلقة بما بين الإنسان وربه، لأنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة، وإنما يتلهى بها المتهوسون حتى إذا أضاعوا فيها أعمارهم وصاروا لا يرون علماً غير علمهم، أمن الاستبداد منهم كما يؤمن شر السكران إذا خمر. لكن فرائص الاستبداد ترتعد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الأمم وطبائع الاجتماع والسياسة المدنية والتاريخ المفصل والخطابة الأدبية ونحو ذلك من العلوم التى تكبّر النفس وتوسع العقول وتعرف الإنسان حقوقه وكم هو مغبون فيها وكيف الطلب وكيف النوال وكيف الحفظ.»

هذا هو المعنى الذى كان يجب وما زال على كليات العلوم الاجتماعية العربية أن تنتجه. أن تكون علوم حياة وليس كما هى اليوم علوم ميتة أو شبه ميتة؛ لأنها دخلت فى متاهة وكثير من الممارسات الماسخة التى لا يمكن أن ينتج عنها شيء سوى اللا معنى. وسأكتفى برصد خمس ملامح لتلك المتاهة.

أولاً: العلوم الاجتماعية الراسخة ذات المعنى علوم انتماء، لأنها ببساطة شديدة علوم دولة، أو للدقة علوم وطنية، مهمتها حماية الوطن والارتقاء بالمواطن، لكن ما يحدث على أرض الواقع أمر ماسخ على أقل تقدير. فقد بات مشتغلون كثر يستوردون كل شيء من الخارج، ويزيد المسخ بلة اللهاث العجيب وراء الاعتمادات الأكاديمية الأجنبية، ومعايير الأداء المقتبسة واستجداء الظهور فى قوائم التصنيف الكبرى، التى تتحكم فيها جهات نفعية تقبع وراء البحار، ناهيك عن استيراد عمالة فكرية أجنبية، قسم منها غير قادر على فهم الإشكاليات المحلية والتصدى للقضايا الوطنية. وعندما تتسبب ممارسة العلوم الاجتماعية فى مثل هذه الصور من الإيذاء فإنها تصبح علوماً بلا معنى.

ثانياً: العلوم الاجتماعية الراسخة علوم مجتمع، واجبها أن تتحداه وتستنهض تفكيره. لكن ليس من حقها أن تتجرأ عليه لتستعديه وتسخفه، وإلا فعليها السلامة. فالناس أذكياء. يراقبون كل شيء ويتابعون كل شخص، بما فى ذلك المشتغلين بالعلوم الاجتماعية، ويتحسسون بشدة لما يترامى إليهم إن هدد ثوابتهم وخالف توقعاتهم. وأبسط رد فعل يصدر عنهم عندما يجدون العلوم الاجتماعية تهدد حياة أولادهم أن يصفوها باللا معنى. وممارسات عديد من كليات العلوم الاجتماعية تشير إلى أنها بنت وعياً زائفاً لما استسلمت للإمبريالية المعرفية، فدخلت فى غيبوبة فصلتها عن مجتمعاتها وجعلتها تسرف فى إنتاج اللا معنى.

ثالثاً: العلوم الاجتماعية الراسخة ذات المعنى تنتج ما يلفت انتباه صناع القرار، وما يفهمه الناس بأبجدية يعرفونها. صناع القرار لا يحبون التقعير والتنظير وطبيعة مهامهم عملية للغاية، وهى أمور لا يتدرب عليها معظم المشتغلين بالعلوم الاجتماعية. أما عامة الناس، فالمدخل إليهم لن يكون إلا عبر آذانهم. ولهذا تهمهم مسألة اللغة. التى لا يمكن التعامل معها باستخفاف، فاللغة ليست مجرد وسيلة اتصال، وإنما مخزن كامل للوعي. وبما أن الوعى هو صناعة العلوم الاجتماعية، فإن تغييب اللغة العربية تماماً فى بعض كليات العلوم الإجتماعية وتهميشها فى أخرى، أنتج وعياً زائفاً وأفرز كثيراً من التشوهات، بل واللا معنى.

رابعاً: العلوم الاجتماعية الراسخة ذات المعنى علوم ناطقة، جريئة وشجاعة لا مكان فيها للجبناء، تحتاج إلى الشجاعة المزوجة بالمسئولية، والمواقف الصريحة المقرونة بالاتزان، والاتجاهات المعلنة شريطة أن تكون منطقية. وهذه الشجاعة والصراحة والجرأة ليست عيوباً فى ممارسة تلك العلوم، بل إن ذلك هو طبعها. فهى علوم لا تحتمل التقية أو سد الفم، لأن التقية والسكوت فيها خيانة لا تنتج شيئاً إلا اللا معنى.

خامسًا: تبدأ العلوم الاجتماعية الراسخة ذات المعنى من الفلسفة وتنتهى إليها. لكن ما حدث بالتدريج عبر عقود فى عديد من كليات العلوم الاجتماعية العربية، أنها راحت تحت ضغط التبعية والتقليد وبمزاعم اللحاق والتجديد تنصرف عن الأصول الفلسفية لتشتغل بالأدوات على حساب الغايات. فمصيبة العلوم الاجتماعية العربية هنا أن مسيرها يختلف عن مسار العلوم الغربية التى تحاول أن تقلدها.

فعلى عكس العلوم الاجتماعية الغربية، لم تصل العلوم العربية بعد إلى غايتها، ولم تقدم شيئاً يذكر يساعد الإنسان، كما ذهب الكواكبى، على تكبير نفسه وتوسيع عقله وطلب ونيل وحفظ حقوقه، بل تخلت عن هذا كله وراحت تعطى مساحات متزايدة للأدوات والتقنيات لتعتنى بالرقمنة وبرمجيات التذاكى المصطنع، وغير ذلك من مظاهر الأتمتة التى تندر بتحول عدد كبير من المشتغلين بها إلى ميكانيكيّ آلات ومجمعى أرقام وصناع قوالب، يركزون على مكملات المكياج العلمي، فتضيع الجذور الفلسفية للعلم الاجتماعي، وتضيع معها عملية إنتاج المعنى.

فمثلما جرى قذف المجتمعات العربية بسرعة وقسوة إلى ما بعد الحداثة دون أن تمر على مهل بالحداثة حتى تفهمها وتهضمها، يجرى قذف العلوم الإجتماعية العربية حالياً بطريقة ركيكة غير مدروسة فلسفياً إلى تطبيقات ما بعد الحداثة، ليس فقط دون أن تستوعب الحداثة أولاً، بل وحتى دون أن تتخلص من البداوة المعرفية وضيق الأفق المروع الذى ما زال مسيطراً على طريقة تفكير قطاعات ليست قليلة من المشتغلين العرب بتلك العلوم. وكل ذلك يغرقها فى إنتاج اللا معنى.

هذه الصور الخمس مجتمعة تعيدنا إلى مشكلة الانفصال بين الدال والمدلول. فعندما تنفصل كليات العلوم الاجتماعية عن رسالة العلوم الاجتماعية يضطرب وجودها، ويصبح بعضها والعدم سواء. فلا معنى للشيء إذا فقد جوهره ورسالته. وهذا ما حدث فى حقل الإنسانيات والعلوم الاجتماعية العربية. فبدلاً من أن تقوم مؤسساتها بشرح وتوضيح ونقد وتصحيح المعني، راح بعضها يهذى وينتج، بل ويعيد إنتاج اللا معنى. ولا بد من التماس بعض العذر لتلك المؤسسات؛ لأنها فى نهاية الأمر ليست إلا جزءًا صغيراً من مجتمع أكبر ينتج بدوره كل يوم كثيراً من اللا معنى.

فلدينا مجتمعات عربية ينادى الناس فيها السباك بالدكتور، وميكانيكى السيارات بالباشمهندس، والضابط بالباشا، والمشاغبين بالنشطاء، ومثيرى الفتن بالمؤثرين، وناشرى التفاهة بصناع المحتوى، ويجاملون العاطل فيسمونه self-employed، والحبل على الجرار فى فصل الدال عن المدلول وقتل المعنى، ليسمى الانقلاب ثورة، والقهر حرية، والديكتاتورية مشاركة، والسرقة إعادة هيكلة، والاحتكار خصخصة، والتغريب حداثة.

وبنفس هذا التناقض بين الدال والمدلول فى المجتمع الكبير، يتسابق مجتمع الإنسانيات والعلوم الاجتماعية العربية فى تعميق التناقض بين دالاته ومدلولاته ليغرق الساحة باللا معنى بطرق وأشكال مختلفة، من بينها بعض الدرجات العلمية التى تكشف شخصيات من يحملها عن خلوها من المعنى. وأطروحات عديدة تسمى مجازاً "علمية" لكن عناوينها وخططها وبنيتها ومضمونها ومنهاجيتها واستخلاصاتها تكشف عن غرقها فى اللا معنى. ومشروعات تخرج عبثية يوضع عليها اسم الطلاب، لكن جهات مشبوهة تقبع تحت بئر السلم، هى عادة ما تقوم بها، ما يكرس فى ذهن الطلاب صورةً معيبة عن العلم، وأنه بأكمله نشاط بلا معنى.

وأمية منهجية مطبقة تؤكد الغياب التام للمعنى، إلى جانب سرقات علمية وعبوديات أكاديمية يستغل القوى فيها الضعيف، وترجمات حرفية عن صفحات أجنبية لموضوعات لا علاقة لنا بها، ناهيك عن لى عنق نظريات مستعارة يتم إنزالها على واقع ليس لها وليست منه، لتخرج عنها فى النهاية توصيات بلا معنى.

قولوا لى مثلاً ما قيمة نظرية العقد الاجتماعى التى تفترض أن الدولة تشكلت بتوافق إرادى حر بين الأفراد، بينما تكونت الدول العربية إما نتيجة القهر الاستعمارى أو بالاستيلاء كما وصفه الماوردى فى الأحكام السلطانية. قد تكون نظرية العقد الاجتماعى قيمة فى سياقها الأوروبي، لكنها بلا معنى فى السياق العربي. أو قولوا لى ما المعنى الذى تقدمه نظرية الحراك الاجتماعى الغربية التى تؤكد على أن الفرد فاعل مستقل، بينما المجتمعات العربية ما زالت تعتمد على القبيلة والأسرة والجماعة فى صناعة الهوية واتخاذ القرار، أو حدثونى عن نظرية الدولة القومية التى تجعل من الدولة عنواناً للحداثة، وتقدمها على أنها الإطار الطبيعى للتنظيم السياسي، بينما ما يزال الدين والطائفة والمذهب فى المجتمعات العربية يشكلون عناصر محورية فى الحياة العامة والخاصة على السواء.

هذه مجرد نماذج لإنتاج اللا معنى، أو للعدمية الأكاديمية إن شئتم، التى يجب ألا نكابر فننكرها، وإنما علينا أن نتواضع ونعترف بوجودها حتى نتمكن من مواجهتها؛ ونسأل أنفسنا لماذا اتسع إنتاج اللا معنى؟

اتسع فى تقديرى لأسباب كثيرة أهمها تضخم ظاهرة اللا منتمين إلى العلوم الاجتماعية.

اللا منتمون

فاللا منتمون تعنيهم الأرقام قبل الأفهام. وهم، وأنقل هنا عن كولن ويلسون فى كتابه «اللا منتمي» أو The Outsider أناس يخافون بشدة على أنفسهم من الجماعة التى وجدوا أنفسهم يعيشون وسطها، لأنهم يعتقدون أن تلك الجماعة لا قيمة لها، بل وتستند إلى أساس واه وربما تكون مجرد محطة مؤقتة فى حياتهم، ما يجعلهم يفَّضلون التفاعل القشرى مع همومها وعدم الاندماج فى نسيجها أو مشاركة القضايا التى تعنيها. فاللا منتمون يؤمنون بأن حياتهم أهم من كل من وما حولهم.

هؤلاء اللا منتمون هم تماماً كمن وصفهم الفيلسوف زكى نجيب محمود ببقعة زيت تطفو على وجه الماء لتعكر صفحة العلم وتنشر التلوث، وتنتج اللا معنى. وهم ليسوا كتلةً واحدة وإنما شرائح مختلفة أعرض من بينها وبسرعة لعشر فئات تشمل:

١) الأكاديميون البيروقراط، ويعتبرون أن الاشتغال بالعلوم الاجتماعية وظيفة توفر مصدراً للدخل وموقعاً لكسب الوجاهة الاجتماعية.

٢) الدخلاء البينيون، ممن التحقوا بالعلوم الاجتماعية بدعاوى التكاملية والبينية ووحدة العلوم، دون أن يمضوا وقتاً كافياً فى تعلم أصولها وفلسفتها.

٣) النفعيون وأكاديميو البيزنس، الذين يتخذون من العلوم الاجتماعية سبيلاً للتكسب سواء ببيع الكتب الجامعية لأعداد غفيرة من الطلاب أو بغيرها.

٤) الأكاديميون السواحون الذين لا يستطيعون أن يطوروا انتماءً وهم ينهون عقداً فى جامعة، ليوقعوا عقداً جديداً فى جامعة أخرى. يتحركون كأنهم سلع ولا يخضعون لقانون غير قانون العرض والطلب.

٥) المؤدلجون، الذين حولوا كليات العلوم الاجتماعية إلى منصات دعائية، يعتليها ناشطون يبرعون فى الدوجماطيقية والتمر المعرفي.

٦) الناقلون المقلدون، ممن يتبنون بلا وعى محلى النظريات والاقترابات الغربية دون تدقيق فى مواءمتها للسياق الوطني.

٧) القافزون من الخارج، ويضمون بعض من أتى إلى مؤسسات العلوم الاجتماعية العربية ليعيشوا فى أبراجها العاجية المريحة مستفيدين من تراث استعمارى قديم يغرس المركزية الغربية.

٨) أكاديميو السلطة والرقباء الأمنيون، ممن يسخّرون مواقعهم الجامعية وأدوات الإدارة لإعادة إنتاج الهيمنة، وهم أكبر من ينتج اللا معنى، بل وقتل معنى العلوم الاجتماعية فى الصميم.

٩) العدميون المقعرون، ممن يتعمدون التشدق اللفظى والغموض اللغوى والتفاصح البلاغى ظناً أن ذلك يعمق المعرفة ويمنحهم سلطة على التخصص.

١٠) المتعجلون المختزلون، الذين يبسّطون الظواهر الاجتماعية إلى حد التفاهة دون النظر فى تعقيداتها، أو يوجهون طلابهم إلى موضوعات هشة ، لا تنتج سوى أكواماً من الأبحاث التى تنهشها الأتربة على رفوف المكتبات.

هذا المدى الواسع من اللامنتمين أوقع العلوم الاجتماعية العربية إما فى فخ التبعية لفكر مستورد، أو فى شراك ممارسات هزلية تقنع بأشباه المعرفة تخرّج أشباه متعلمين.

فشل على فشل

وعند هذه النقطة أشير إلى أنه تمثلّ المنطقة بدول فاشلة ورخوة وهشة وحائسة وبأشباه دول، بل ودول شبهة، تخوض العلوم الاجتماعية العربية فى ممارسات فاشلة ورخوة وهشة وحائسة ومشبوهة لا ينتج عنها معنى. وبدلاً من أن تشارك تلك العلوم فى بناء قوة الدولة تحولت إلى شاهد على ضعفها. ولتوضيح التشابه بين الجانبين، أكتفى بالإشارة إلى أن الأزمات الخمسة التى تعانى منها الدولة العربية هى نفس ما تعانى منه العلوم الاجتماعية العربية والمعاهد القائمة على أمرها.

فالدولة العربية لم تتغلب أولاً على أزمة الهوية لكى تصبح وطناً يصبغ الجميع بصبغة واحدة. وبالمثل تعانى العلوم الاجتماعية العربية من أزمة هوية، تتبدى فى الفجوات العميقة بين القائمين بها وفى اغترابهم وعزلتهم عن بعضهم وفى عجزها عن إنتاج خطاب علمى يكوّن تياراً رئيسياً من المشتغلين بها.

وتعانى الدولة العربية ثانياً من أزمة شرعية جعلتها تفتقر إلى الرضاء الشعبى والقبول المجتمعي. وكذلك تعانى العلوم الاجتماعية بدورها من أزمة شرعية، ينقصها الاعتراف العام بجدارتها وقيمتها ناهيك عن عدم أخذها بجدية فى صنع السياسات. كما تتبدى تلك الأزمة فى ضعف مستوى إقبال الجمهور على إنتاجها.

وتواجه الدولة العربية ثالثًا أزمة توزيع يعكسها غياب العدالة فى تقاسم الثروة والسلطة. والعلوم الاجتماعية كذلك فهى إلى الآن علوم عواصم وحواضر كبرى جغرافياً. أما مالياً فالقياس مع غيرها من العلوم لا ينصفها.

وتعجز الدولة العربية رابعًا عن حل أزمة التغلغل. فكثير من الدول العربية غير حاضر إلى الآن فى كل ركن جغرافى من أركانها ولا فى ذهن كل مكون من مكوناتها السكانية. والعلوم الاجتماعية كذلك، عجزت عن أن تتغلغل وتستقر بمعانيها الفلسفية العميقة فى ذهن المشتغلين بها أنفسهم، فما بالنا بذهن الجمهور المستهدف منها.

وخامسًا تهدد الدولة فى العالم العربى أزمة تكامل أفضت إلى اندلاع حروب أهلية، انتهت بتفكك بعض الدول وتهديد بعض آخر منها بنفس المصير. والعلوم الاجتماعية العربية تعيش أزمة تكامل يعكسها غياب الحوار والميل إلى الانعزال التخصصي، والدخول فى استقطابات فكرية ولغوية، كما تتجلى فى معاناتها من التجزئة المفاهيمية وغياب المنهجية وقلة الدراسات البينية عدداً وأثراً.

هذه الأزمات الخمس، وكما أحالت الدولة فى العالم العربى إلى تكوين ينتج كثيراً من اللا معنى يعج بالساكتين والمنسحبين والفارين واللاجئين واللا منتمين، تحيل العلوم الاجتماعية العربية بدورها إلى ساحات تزخر باللا منتمين من منتجى اللا معنى؟ ساحات ينفصل فيها الدال عن المدلول والكلمات عن المعانى بطريقة لا تختلف كثيراً عما بدر من ذلك المشجع الإنجليزى الذى أوحت طريقة نطقه لاسم (صلاح) بـ(صلاه) بأنه يتشوق للصلاة بينما كان يتحرق من أجل لفت انتباه لاعب كرة.

اللامنتمون في العلوم الاجتماعية مثل بقعة زيت تطفو على وجه الماء لتعكر صفحة العلم وتنشر التلوث وتنتج اللا معنى